

الإصلاح الزراعي الصناعي في روسيا

للاستاذ يحيى هويدى

نحمد الله أن أصبح لنا من النضج في التفكير ، ومن الشعور بالذاتية القومية ما يسمح لنا بمعالجة الموضوعات التي تتصل بالاتحاد السوفيتي على صفحات مجلاتنا وجرائدنا . وكانت من قبل من الموضوعات الشائكة التي يتحرج الكاتب من الكتابة فيها أو الإشارة إليها . ورأى في هذا أن من حق المصريين ، وقد شعروا أنهم يتقدمون نحو الإصلاح بخطوات واسعة ، أن يطلعوا على ما تم في الأمم الأخرى في سبيل إصلاحها . وهم بعد ذلك في حل من أن يقبلوا ما اطلعوا عليه من نظم الإصلاح في الأمم الأخرى أو يرفضوه بحسب ما يرون في ذلك من ملاءمة هذا النظام أو ذاك لحالتنا الاجتماعية أو عدم ملاءمته . ولكن ما يهمنا في ذلك كله هو أن يطلعوا ويستنبطوا ويكونوا نظرة عالمية واسعة عوضاً عن النظرة القومية الضيقة .

وليس من شك في أن النهضة التي شاهدها روسيا من الناحيتين الزراعية والصناعية في السنوات الأولى من هذا القرن ، والتي وقف بإزائها العالم أجمع مشدوها لا يكاد يصدق ما يراه ، جديدة بنظر كل من يريد أن يكون فكرة عامة عن الإصلاح في الأمم الأخرى . لا سيما وأن الصعوبات التي وقفت في سبيل النهضة الروسية المنشودة كانت كافية لتثييط هم المصلحين ولهدم الإصلاح من أساسه .

فكلنا يعلم حال روسيا القيصرية قبل ثورة البلاشفة . فلم تكن روسيا إذ ذاك تختلف في كثير أو قليل عن حالة فرنسا قبل الثورة . وكان نظام الطبقات ممثلاً في روسيا أعظم تمثيل . فكانت هناك طبقة الزراع أو طبقة العمال الزراعيين الذين كانوا بمثابة البقرة الحلوب لللاك وأصحاب الأراضي . وكان هؤلاء الملاك يلزمون الزراع بدفع تعويضات باهظة وأجور عالية كثيراً ما كانت فوق متناولهم وترحقهم إرهاباً لا يسمعون معه إلا أن يهجروا قراهم ليعملوا في المصانع في المدينة . وعلى الرغم من ذلك فلم تكن حالة العمال الصناعيين خيراً من حالة إخوانهم الزراعيين . فكانت الأجور منخفضة إلى حد يدعو إلى الإشفاق ، وساعات العمل تتراوح بين ١٢ ¼ ساعة في المناجم والمصانع ، وبين ١٤ - ١٥ ساعة في مصانع النسيج كما

ذكر ذلك لينين في رسالته الصغيرة . " إلى فقراء القرية " . وأحب أن أشير هنا إلى أنه يجب ألا يفهم عند الحديث عن العمال الصناعيين أن الصناعة في روسيا في هذا العهد كانت متقدمة بحيث نستطيع أن نسميها صناعة على وجه الدقة . فقد ذكر لينين في كتابه " تطور الرأسمالية في روسيا " أن $\frac{1}{4}$ من مجموع الشعب كانوا يعملون في الزراعة ، أما السدس الباقي فكانوا عمالا صناعيين يعملون في المصانع أو في السكك الحديدية ، وهذا دليل على أن الرأسمالية في روسيا كانت زراعية لحسب ولم تكن صناعية شأنها شأن البلاد الرأسمالية الأخرى التي جمعت بين الصناعة والزراعة ، وفي مقابل هذه الطبقة ، طبقة العمال الزراعيين والصناعيين كانت هناك طبقات أخرى تمثل الأوستقراطية والرأسمالية الحققة . فهناك طبقة الملاك وأصحاب الأراضي في القرية مضافا إليهم أصحاب الأعمال في المدينة ، وكان يعاون الملاك في جمع الضرائب وفي تنفيذ أوامر القياصرة جماعة يدعونهم " الشرفاء " كانوا يسومون العمال الزراعيين والصناعيين المذاب ألوانا . وكانت هناك طبقة أخرى تتوسط طبقة الملاك من ناحية وطبقة العمال الزراعيين والصناعيين من ناحية أخرى وأفراد هذه الطبقة ليسوا أرستقراطيين لأنهم كانوا عمالا وأنزوا ثراء فاحشا ، ولنسئ هذه الطبقة " أثرياء الطبقة المتوسطة " أو جماعة الكولا كس The Kulaks .

ولم يكن نظام الطبقات هذا أو سوء توزيع الثروة في روسيا هو العقبة الوحيدة التي وقفت في سبيل النهضة المنشودة ، بل أن الزراعة والصناعة في روسيا كانتا في العهد الذي سبق الإصلاح متأخرتين إلى درجة يتعذر معها كل إصلاح ، فكانت المصانع مزودة بالآلات بالية عني عليها الزمن ، ولم يكن لينين لها أن تجارى التقدم الصناعي الجديد ، وكانت الصناعات القائمة في روسيا حينذاك صناعات خفيفة لا تصاح لتقويم أمة تقو بما صناعيا صحيحا ، فكان الأمر بحاجة إلى أن يستبدل بتلك الصناعات صناعات ثقيلة تفيد الاقتصاد القومي ، وتصلح لتقويم الجيش ولتزويده بما يحتاج إليه من العدد والآلات . ولم تكن الزراعة بأحسن حالا . فقد كانت زراعة متأخرة ، قليلة الانتاج ، لا تستند إلى الآلات بل كانت بدائية تقوم على مجهود الفلاح البدوي .

وليس هذا لحسب . بل لم تكن تبدأ روسيا في الإصلاح المنشود ، وفي تمهيد الطريق إليه حتى دهمتها حروب مدة خارجية وداخلية . فقد اشتركت روسيا ضد اليابان في الحرب الاستعمارية (الأمبريالية) The Imperialist وكان عليها أن تقاوم التدخل الأجنبي لأكثر من دولة كانت تجد في روسيا تحقيفا كبيرا لمقاصدها في ذلك الوقت . وقد وجدت هذه الدول التي طاب لها أن تتدخل في مصالح روسيا حينذاك مشجعا من الرأسمالين الروس أنفعهم ومن أصحاب الأراضي والملاك فيها . ذلك أن هؤلاء ، وقد وجدوا في طبقة الزراع

والصناع ما يبشر باتجاه جديد أرادوا أن يقتضوا على هذا الاتجاه في مبدئه ، وكان هذا النزاع سببا في قيام حروب أهلية في روسيا لحق البلاد بسببها من الأضرار ما لا يقل بل وما يزيد عما لحقها من الأضرار في حروبها الخارجية .

وليس أدل على ذلك مما وصلت اليه حالة الاقتصاد القومي في روسيا من انحطاط ظاهر ولا عجب فقد استمرت هذه الحروب الطاحنة قرابة سبع سنين : أربع سنين في الحرب الاستعمارية وثلاث أخرى في حرب ضد التدخل الأجنبي والحروب الأهلية ، فلم يبلغ الانتاج الزراعي سنة ١٩٢٠ في روسيا نصف ما كان عليه قبل هذه الحروب . علما بأن الإنتاج الزراعي قبل الحرب — في ظل الحكومة القيصرية — قد وصف بأنه إنتاج قليل ضعيف ، ولم يصل الانتاج الصناعي في هذه الفترة في أكثر مناحيه الى $\frac{1}{4}$ الإنتاج الصناعي قبل الحرب وأوقف العمل في المناجم ، وعطلت طرق المواصلات . وكانت البلاد كلها تشكو نقصا ظاهرا في المواد المعيشية الضرورية .

تلك صورة عامة للحالة التي كانت عليها روسيا في الفترة التي سبقت الإصلاح . ومنها نرى أن الطريق الى الإصلاح في روسيا لم يكن ممهدا ممهدا كما يظن البعض ، بل إن العقبات والصعوبات التي اعترضته كانت من الخطورة بحيث لو ألقينا نظرة عاجلة بعد ذلك على نتائج الإصلاح الروسي لما استطعنا أن نكتف شعور الإعجاب بهذا الشعب الذي تبوأ مكانه بين الدول العظمى بين غمضة عين وانتباهتها وتاريخ روسيا في هذه الناحية نموذج طيب للمهضات الاجتماعية الباجحة التي ترتفع الأمم من الخضيض الى أعلى علين ، ولا يهتنا في هذا الطريق الذي سلكه الروس في الإصلاح لذاته بقدر ما يهتنا أن نعرف أن هناك أمما ارتفعت الى الذروة وكانت من قبل تفتقر الى كل شيء ، ويعوزها كل شيء . وهذا حافز طيب للأمم الصغيرة لنهض ، وفيه رد على الذين لا ينظرون الى حالتنا الحاضرة مرة إلا ريمحا يرجعون بهصرهم انهم من الإصلاح داعين للتكاسل والخذلان . اللهم إنا نسأل لحولاء الصمت ، كما نسأل للتفائلين ذوي العزائم القوية العمل والانتاج .

نظرت روسيا الى نفسها وهذه حالتها فلم تياس ولم تتردد لحظة واحدة في سبيل التقدم نحو الإصلاح . وكانت هناك عقبة كؤود تقف في سبيل الإصلاح المنشود فضلا عما ذكرنا من عقبات ، فهذه المشروعات الضخمة التي أعدها المصلحون كان يعوزها المال — المال هو العدو اللدود الذي يقف في وجه كل مشروع فردى أو اجتماعي فيهد من أساسه ويقضى عليه . وقد رأت روسيا أن الأمم الرأسمالية قد نجحت في التغلب على هذه العقبة بأن اقترضت الأموال اللازمة لها من الدول الأخرى أو ألزمت الدول المدلوبة على أمرها

بتعويضات مالية كبيرة . ولم تكن تملك روسيا في ذلك الوقت أن تلزم أية دولة بتعويضات مالية ، فضلا عن أنها لم تستطع أن تقتض شيئا من الدول الرأسمالية لرفض هذه الأخيرة أن تقرضها . فكان عليها إذن أن تجد المال في داخل البلاد نفسها ، ولا تلجأ في الحصول عليه الى الخارج ، وقد وجدته فعلا ، فقد استولت الحكومة السوفيتية على جميع المصانع والطواحين والأراضي من الملاك وأصحاب الأعمال وسيطرت على جميع رسائل المواصلات والبنوك والتجارة الداخلية والخارجية ، وأصبحت الدولة هي المالكة لكل شيء ، فتوفر لديها من هذا كله ثروة هائلة كانت تضع في أيدي الرأسماليين والطبقات الاستغلالية (كطبقة الكولاكس) الذين لم يكونوا يعاينوا بآى إصلاح . وقد بلغت الحكومة الى توفير المال من طريق آخر ، فند ألغت حقوق الملاك في أراضيهم ، وأصبح هؤلاء لا يملكون حق التصرف فيها . وقد رفعت الحكومة يدها هذا عبئا ثقيلا كان يروح تحته العمال الزراعيون الذين كانوا يرغمون على دفع الأموال الطائلة للمالك . ووفرت بهذا جميع هذه الأموال الى المالك أنفسهم . ومن ثم وجد هؤلاء المالك أنفسهم في مركز ما يسمح لهم بالمساهمة في مشروعات الإصلاح التي وعدتهم عنها الحكومة ، والتي شرفوا بلوغها في بلادهم . والآد ما هي هذه الإصلاحات ؟

الإصلاح الزراعي .

بدأت الثورة السوفيتية بقتل مئات بترزوي الأراضي توزيعا عادلا . فأعطت الفلاحين الذين لم يكونوا يملكون شيئا فيما مضى أراضيهم في الأراضي . وقامت بذلك على التوافق المبادئ التي كانت قائمة بين كبار الملاك والفلاحين . غير أنها سرعان ما اكتشفت خطاها في هذا التوزيع ، ووجدت أنها تواجه أمام مشكلة من أعقد المشاكل . فقد كانت الضياع الواسعة التي يملكها الملاك وأصحاب الأراضي فيما مضى قادرة على توريد الشيء الكثير من المحصول الزراعي — وقد كاد فائضا عن حاجة هؤلاء الملاك — إلى السوق في المدينة . وكان هذا الجزء الهام من المحصول الزراعي الذي يندوى مفيدا جل الفائدة للمدنيين . إذ كانوا يعتمدون عليه أولا وقبل كل شيء في الاستهلاك .

وكان الجيش يشتري ما يحتاج إليه من خبز ومحاصيل أخرى للاستهلاك من هذا الجزء من المحصول الفائض عن حاجة كبار الملاك . ولكن الحال اختلفت تمام الاختلاف . فقامت الحكومة بتوزيع هذه الضياع الواسعة ، وتلك المساحات الكبيرة على جميع الفلاحين . ولكي تترك لكل شخص الحق في الملكية فقد انتهى الحال بهذه الضياع إلى أن أصبحت ضياعا ضيقة ، وضيقة جدا في بعض الأحيان . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا أن أصحاب هذه الضياع

الضيقة ما كان في وسعهم ، لضيق مساحة أنصبتهم من الأرض ، أن يوردوا إلى السوق شيئاً من المحصول لكي تستهلكه المدينة . ومن ثم أصبحت الحكومة عاجزة عن تموين المدنيين من ناحية والجيش من ناحية أخرى بما يحتاجون إليه من المحاصيل الزراعية . وخيم شبح المجاعة على المدينة ونظر الرأسماليون وأصحاب الألاك الذين نكبوا في أرضهم إلى النظام الجديد نظرة ملؤها السخرية من ناحية واليقين بعودة الحكومة إلى النظام القديم من ناحية أخرى .

• لعلاج هذا الخطر الداهم كان أمام الحكومة طريقان : إما العودة إلى النظام القديم في توزيع الأراضي ، نظام الضياع الواسعة ؛ وفي هذا رجوع بالنظام الشيوعي إلى القهقري وإجحاف بالطبقة الزراعية أى إجحاف . وواضح أن هذا الطريق لم يكن في مصلحة الحكومة . أما الطريق الثاني فيرمي إلى إدخال نظام الضياع الواسعة في النظام الشيوعي وصبغه بهذه الصبغة الجمعية أعني أن هذه الضياع الواسعة لن يقوم بزراعتها الأفراد كل على حدة بل سترع بطريقة جماعية تكفل توريد كميات وافرة من المحاصيل الزراعية إلى المدينة . وبهذا تتفادى الحكومة المجاعة التي كانت تهدد المدنيين ورجال الجيش . فهذه الضياع الواسعة التي سترع بطريقة جماعية لها هذه المزية من ناحية ، فضلاً عن أن الزارع يستطيعون في ظل هذا النظام الجمعي إدخال النظم الآلية في الزراعة . وهذا ما كان يصبو إليه الزارع والحكومة معا لتوفير كمية أكبر من المحاصيل . فعل الحكومة إذن أن قنعت الزارع (عن طريق الإقناع وحده وليس عن طريق القوة) أن يخلوا عن الطريقة الفردية في الزراعة ويستبدلوا بها الطريقة الجماعية الجديدة .

وقد قال الرفيق متاين في اجتماع اللجنة المركزية لل مؤتمر الشيوعي في جلستها انثامسة عشرة في معرض الكلام عن هذا الخطر الداهم ، قال : ” فالطريق الوحيد أمامنا هو أن نحول الضياع الصغيرة المنتشرة إلى ضياع مقسمة متحدة قائمة على نظام زراعي جمعي . يشهد أزره الآلات الزراعية الحديثة وتغذيته أحدث الطرق العلمية في الزراعة . وليس هناك طريق للفلاح إلا هذا “ .

والمهم من هذا كله أن نلاحظ أن الزراعة في روسيا لم تعد زراعة فحش . بل زراعة تشد أزرها العدد والآلات . أعني أنها أصبحت زراعة صناعية . يقول متاين ” إننا نمر الآن بمرحلة خطيرة تتحول فيها بلادنا من قطر زراعي إلى قطر صناعي “ .

أقبل الناس على النظام الجديد ، النظام الجمعي في الزراعة شيئاً فشيئاً وأخذت الحكومة في إقناعهم بصلاحيته . ولكن أفراد طبقة ” الكولاكس “ لم يقرروا الحكومة في خطتها الجديدة . ولم تجر المحاولة في إقناعهم شيئاً . ولما أعيت الحكومة الحيل في إقناعهم بالإقناع

عن النظام الفردى ، أصدرت أمرها بمنع تأجير العمال الزراعيين ماداموا قد أصبحوا ملاكا ولم يعودوا عمالا لحسب . ولما كانت طبقة "الكولاكس" تعتمد على العمال الزراعيين فى زراعة أراضيها ، فقد اضطرت بعد صدور القانون بحظر تأجيرهم لأنهم لم يعودوا أجراء ، اضطرت الى تسليم أراضيها . وبهذا حلت الحكومة مشاكل عدة .

١ — فقد تخلصت من أكثر الطبقات استغلالات فى روسيا ، وهى طبقة الكولاكس . وبذلك قضت على آخر الطبقات تمسكا بالنظام الرأسمالى .

٢ — وقد نجحت الحكومة فى إقناع أكثر الطبقات الغالية عددا وهى طبقة الفلاحين بأن يتفكروا من نظام الزراعة الفردية التى ليست إلا طريقا من طرق الرأسمالية الى نظام الزراعة الجماعية .

٣ — وقد ثبتت الحكومة بهذا القرار أقدام النظام الجمعى التعاونى فى الزراعة . ولجأت الحكومة بعد ذلك إلى تقسيم الروسية إلى مناطق زراعية ينفذ فيها النظام الجديد سنة بعد أخرى لتضمن له الانتشار (١) شمال القوقاز ووسط الثولجا وجنوبه . وقد كانت هذه المناطق مستعملة للنظام الجديد لوصول الآلات الزراعية الحديثة إليها . (ب) أوكرانيا ومنطقة الأرض السوداء ، صيريا ، والأورال . وقد حددت هذه المناطق أن يتم فيها الزراعة على أساس النظام الجمعى عام سنة ١٩٣٢ . (ج) وحددت للمناطق الأخرى وكانت تشمل منطقة موسكو وجمهوريات وسط آسيا الخ عام سنة ١٩٣٣ . والواقع أن هذا التقسيم قد أفادت منه البلاد فائدة عظيمة وشهدت سنة ١٩٣١ على وجه التحديد بتقدم هائل فى النظام الجمعى ، وبإقبال شديد عليه . فقد أصبح ٨٠٪ من الأراضى حتى هذا العام تزرع بهذا النظام .

البقية فى العدد القادم

يحيى هويدى

المدرس بأمران الثانوية